الظاهرة العاطفية الانسانية في سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وأقواله

آية الله الشيخ محمد علي التسخيري
الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية
الجمهورية الاسلامية الإيرانية

قبل الحديث عن هذا الجانب المهم في سيرته (ص) نرى من المستحسن ذكر بعض النقاط وهي:

اولاً: العاطفة جزء مهم من الشخصية الانسانية، والواقعية وهي من اهم صفات الاسلام العامة تقتضي الاهتمام بها، وترشيدها لتتحقق الثمار المرجوة. وهنا نجد الامام علياً (في مجال وصفه للانسجام بين مكونات الشخصية الانسانية، وهي العقل والفكر والعاطفة والحواس والسلوك) يقول: «العقول ائمة الأفكار، والافكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الجوارح»[1] ليكشف بدقة عن جذور السلوك الانساني الواعي.

والاسلام يعمل تماما على تربية الانسان في كل هذه المراحل:

أ ـ يقوم بتربية عنصر التعقل الغريزي في الانسان فيدفعه للتأمل والتدبر والتعقل والبرهنة والنظر وامثال ذلك.

ب ـ يؤكد على الاسلوب المنطقي للعملية العقلية مبتعدا بها عن ما يخل بالنتائج من اساليب تتنافى والحوار السليم.

ج ـ يربي العنصر العاطفي ويشبعه بحب اصيل لأروع محبوب وهو (الله) ـ تعالى ـ

الجامع لكل ما ترغب النفس فيه من كمال مطلق، فتسمو العاطفة غاية السمو.

د ـ يعطي الشريعة الغراء الفطرية التي تنظم السلوك وترسم خارطة السعادة.

هـ ـ يربي الارادة القوية الواعية التي تبقى أسمى من كل دافع عاطفي مهما كان متأججا للتأكد من كون العاطفة تسير في الاتجاه الصحيح ام لا، وتحتفظ بحريتها في توجيه السلوك. وبهذه الحرية تحصل المسؤولية. فلسنا مع من يصف (الارادة) بـ(العاطفة المتأججة) وإلّا لوقعنا في (الجبرية) وهو الامر المرفوض وجداناً وشرعاً. ولكن يبقى للعواطف دورها المؤثر على الارادة والسلوك. ومن هنا جاء التاكيد الاسلامي على هذه المسألة بشتى الاساليب ومنها:

١ ـ الاساليب التوجيهية المباشرة التي تحذر من الاهواء الجامحة بل والطاغية فيقول القرآن الكريم:

﴿أرايت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾ [٢]

٢ ـ الاساليب غير المباشرة باستخدام الامثال والقصص التي تمجد الذين سيطروا على دوافعهم واهواءهم كالانبياء والصالحين.

٣ ـ تقديم النماذج العملية المتمثلة في سلوك النبي (ﷺ) والقادة الذين رباهم من اهل البيت الطاهرين والصحابة الميامين.

٤ ـ دعوة المسلمين بالارتفاع بحبهم الى أسمى المستويات وهي حب الله وحب رسوله وحب أهل بيته الطاهرين واصحابه المخلصين وحينئذ تنتظم العواطف في منظومة رائعة منسجمة مع الفكر، وخلاقة للعمل للصالح.

ثانياً: وتتم هذه العملية التربوية للعواطف بعد تأصيل وتعميق الايمان بالله الجامع* لكل صفات الكمال والجلال، وربط الانسان به الى أقصى حد من جهة، وتربية تصوره عن الكون والحياة بتأكيد قيامهما على أصول أهمها (الحق، والعدل، والحب، والرحمة) ويبقى الفكر والعاطفة يعيشان في هذه الأجواء ويكملان فيها. وتأتي سيرة الرسول وسنته لتؤصل هذه المعاني، وتقدم التجسيد الحسي الأمثل لها. ولشيء من التوضيح نلاحظ هذه الاصول:

١ ـ الحق سر الكون

يقول الراغب في مفرداته ـ بتصرف ـ:

«الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة. والحق يقال على أوجه:

الأول: يقال لوجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة. ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق (ثم ردوا الى الله مولاهم الحق).

الثاني: (للموجد بحسب مقتضى الحكمة. ولهذا يقال الله تعالى كله حق (وأنّه للحق من ربك).

الثالث: من الاعتقاد بالشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه. كقولنا: اعتقادنا فلان في البعث والثواب... حق (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق).

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب. كقولنا: فعلك حق (حق القول مني لأملأن جهنم)» [٣].

ويمكننا أن نستنتج من مجموع هذه الاستعمالات أن الحق يعني باختصار: الأمر الواقع أو الواقعي.

ونقصد بالواقع: الموجود المتعين في الواقع الموضوعي أو العالم المستقل عن الصور الذهنية وبالواقعي الأمر الذي يطابق مقتضيات الواقع الخارجي.

وأروع انطباق للحق هو في الذات الالهية باعتبار أنها بلغت من الوضوح لدى الفطرة الانسانية بحيث عاد الايمان بها ايماناً بديهياً. فأنوار الله تعالى قد غمرت الوجود فلم تعد تبصر الله تعالى في كل شيء، لذا كان هو الحق الذي لا مراء فيه والواقع الذي لا يشك فيه.

أما ما عداه تعالى من مخلوقاته وتشريعاته التي أسماها القرآن بالحق فهي ـ كما أرى ـ اكتسبت صفة الحق من وجهتين:

أ ـ من كونها واقعاً موضوعياً وهذا كما نشاهده في قوله تعالى (يوم يقوم الناس بالحق) [٤]. فيلاحظ هنا التأكيد على الأشياء الخفية عن حس الانسان واعطائها صفة كونها حقاً لتركيز الايمان بها.

ب ـ من كونها وجدت وفق مخطط الهي عام للكون، كل جزء فيه ضروري لسير الحركة الكونية، ودخيل في تحقق الغاية المرجوة من الخلق التي أرادتها العناية الالهية منذ ارادت أن يكون فكان، وفي هذا القسم الثاني تدخل كل الأشياء سواء كانت مخلوقات تكوينية أو قوانين تشريعية. يقول تعالى:

﴿ذلك بأن الله نزّلَ الكِتاب بالحقِّ﴾ [٥].

﴿وهُو الذي خلقَ السّماواتِ والأرضَ بالحق﴾ [٦].

﴿وَالوزنُ يومئذٍ الحقُّ﴾ [٧].

﴿هُوَ الذي أرسلَ رسولهُ بالهُدى ودينِ الحقِّ﴾ [٨].

﴿قُل الله يهدي للحقِّ﴾ [٩].

﴿وتواصَوا بِالحقِّ وتواصوا بِالصبرِ﴾ [١٠].

٢ ـ العدل يسري في انحاء الوجود:

رغم أن البحث الكلامي والجدل الذي دار بين الفرق الاسلامية كان ينتهي أحياناً الى نتائج معينة، يتغلب فيها أنصار العدل حيناً، وتقوى الشبهات فيغلب أنصار رفض العدل حيناً آخر، فانّه مما لا شك فيه لدى المسلم: أنَّ العدل ـ بأي معنى من معانيه ـ يبدأ بالعدل الالهي بمفهومه الاجمالي الذي حدّثنا عنه القرآن الكريم، وينتهي بتطبيقاته في كل ذرة من ذرات الوجود.

فالعدل العام اذن في اعتقاد المسلم قوة أخرى وعامل قوي من العوامل المعنوية، التي تتدخل لصالح القضية العادلة في الكون... والظلم بنفسه يشكل عاملاً من عوامل الزوال والفناء، بغض النظر عن العوامل الأخرى.

هذا بايجاز ملخص نظرة المسلم العامة، ولا مجال للافاضة فيها أكثر، فلنلاحظ الآيات التالية:

﴿وَأمرتُ لأعدلَ بينكُم﴾ [١١].

﴿انَّ الله يأمرُ بالعدلِ والاحسانِ﴾ [١٢].

﴿وتمت كلمتُ ربكَ صدقاً وعدلاً لا مُبدلَ لكلماتِهِ﴾ [١٣].

﴿ومَا ظلمناهُم ولكِن ظلمُوا﴾ [١٤].

﴿قالَ وَمن ذُريتي قالَ لا ينالُ عهدي الظَّالمينَ﴾ [١٥].

﴿فُتلك بُيُوتهم خاويةٌ بِما ظلمُوا﴾ [١٦].

﴿انَّ الله لا يظلمُ مِثقالَ ذرةٍ﴾ [١٧].

﴿وَوَجدوا ما عملُوا حاضراً ولا يظلمُ ربُّكَ أحداً﴾ [١٨].

﴿وَنَضعُ الموازينَ القِسط ليومِ القيامةِ فلا تُظلمُ نفسٌ شيئاً﴾ [١٩].

﴿لا ظُلم اليومَ﴾ [٢٠].

﴿شهدَ الله أنَّه لا اله إلّا هُو والملائكةُ وأُلوا العلمِ قائماً بالقسطِ﴾ [٢١].

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا كونوا قوّامين بالقسطِ شُهداء لله﴾ [٢٢].

٣ ـ الحب اطار العلاقات بين مختلف أنحاء الوجود:

ومما يعتقد به المسلم على ضوء القرآن الكريم: أن هناك اطاراً رحيماً عاماً شاملاً لكل أنحاء الوجود، وسارياً في مختلف أنواعها، فالعلاقات بين الخالق والمخلوقين يؤطرها الحب، والعلاقات بين المخلوقين المتحدي الهدف والمتأدبين بأدب السماء روحها الحب، وحتى العلاقة بين المؤمنين في الكون وبين أجزاء الكون التي لا تمتلك شعور الانسان، حتى هذه العلاقة، يحكمها الحب المتبادل.

ومبررات هذا الحب واضحة تماماً على ضوء العقيدة الاسلامية وتعاليم القرآن، فاذا بدأنا بالاطار الودي القائم بين الانسان وربه أدركنا أروع علاقة حب تتفاوت درجاتها، من حب يقوم على المصلحة في طرف الانسان ولكنه على أي حال حب جارف، الى حب خالص واع يعبر عن قمة في هذا المعنى، أنه حب الأوصياء المخلصين.

والاسلام يمتلك خاصية أنه يبدأ بالأشياء ببداية بسيطة، كأقامة حب يقوم على ذلك الأساس المصلحي، ثم يرتفع به الى مستوى يجعله جزءاً من كيان الانسان. ودافعاً ذاتياً يتحكم في سلوكه، ويوجهه لصالح القضية الانسانية العامة.

أما الحب من طرف الباري جل اسمه، فهو وأن كان يخلق في نفوس السذج من المؤمنين نفس الايحاءات والتصورات البشرية من الحب بين الكائنات، ولكنه في الواقع أسلوب تعبيري عن القرب من العطاء الالهي والاختصاص بالرحمة والرضوان بصورة أكبر من ذي قبل. وانني قد أجزم بأنَّ الايحاء الأول حاصل حتى عند بعض أعمق المؤمنين بالله تعالى بالنظرة الأولية: وأن هذا أيضاً بنفسه مطلوب ومقصود. اذ أن الحب حرارة ولوعة وشوق، والنصوص القرآنية الكريمة تركز على عملية خلق الانفعال وشدّ العواطف للباري عزّ و جلّ بأساليب، منها بل أعظمها الدوافع الناتجة من تصور الله تعالى يلقي بظلال المحبة على الانسان العابد.. ويمكن للقارئ الكريم التأكد من ذلك بمراجعة وجدانه الحاكم في مثل هذه الموارد.

فالنصوص تثبت الحب لأصناف المؤمنين الواعين، من أمثال (المحسنين، التوابين، المتطهرين، المتقين، الصابرين، المتوكلين، المقسطين، الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) والنصوص تثبت الحب بين أفراد المؤمنين ﴿يُحبونَ من هاجرَ اليهم ولا يجدُون في صدُورهم حاجةً ممَّا أُوتُوا﴾[٢٣].

والنصوص تربط بعلاقة الحب بين الانسان والطبيعة، بعد أن يشعر الانسان بأن الطبيعة مسخرة له ولصالحه هو، وبعد الايحاء اليه بأن يد العناية الالهية قد باركت في الأرض أقواتها.

وقد ورد عن النبي العظيم (ﷺ) أنه قال عندما رجع من غزوة تبوك وعندما أشرف على المدينة: «هذه طابة، وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه»[٢٤].

كما عبر عن ذلك بأن «حب الوطن من الايمان»[٢٥].

وهكذا ننتهي الى حلقة رائعة من حلقات هذا الحب، جعلها القرآن بمثابة أجر للرسالة الاسلامية، والجهود التي بذلها الرسول الأعظم في خدمة هذه الأمة، وهي حلقة ربط الأمة كل الأمة بأهل البيت الذين هم خير مؤهل لقيادتها نحو شواطئ الامان، والذين هم سفن النجاة، وباب حطة للعالمين».

﴿قُل لا أسألكم عليهِ أجراً إلّا المودَّة في القُربى﴾[٢٦].

وأخيراً ننتهي الى حلقة صغرى من حلقاتها، وهي المودة القائمة بين الزوجين ﴿وَجعلَ بينكُم مودَّة ورحمةً﴾[٢٧].

وتعتبر النصوص على جوانب النفي مكملة للنصوص الايجابية، فانّ تلك النصوص تؤكد تارة على انقطاع صلة الحب بين الله والعباد الذين خرجوا عن أمر ربهم، من أمثال (المعتدين، الكافرين، الظالمين، من كان مختالاً فخوراً، من كان خواناً أثيماً، المفسدين، المسرفين، الخائنين، المتكبرين، الفرحين).

وأخرى على انقطاعها بين أفراد الانسان: الذين يهتدون بهدى الله والذين استزلهم الشيطان الى الكفر ﴿لا تجدُ قوماً يؤمنونَ بالله واليومِ الآخرِ يُوادُّون من حادَّ الله ورسولهُ﴾[٢٨].

النتيجة

من مجموع هذا نستخلص هذه النتيجة:

(أنَّ المسلم يعتقد بأنه يعيش في عالم من الحب المتبادل)

ولهذه العقيدة تأثيرها الواسع الأبعاد على خلق الأمل في نفس الانسان: الأمل الايجابي الدافع نحو سعادته ورقيه.

على أنَّنا نعترف هنا بأنا لم نف الموضوع حقه في نفسه، لكننا يجب أن نتذكر أننا لا نبحث هنا عنه إلّا بمقدار ما يوضح لنا الصورة التي نريد أن نرسمها.

٤ ـ الرحمة: بها انطلق هذا الوجود الكائن:

هذا المقطع المبارك يعتبر أروع مقطع جامع يعبّر عن سر العقيدة الاسلامية، فقد وردت بعض الروايات التي تركز على أنّ القرآن جمع في سورة الفاتحة، وأن سورة الفاتحة جمعت في البسملة... وعند تحليلنا لهذا المضمون لا يسعنا إلّا أن نرى أنّها تشير الى: أن سورة الفاتحة انما اعتبرت روح القرآن باعتبار أنّها تحوي أصول العقيدة الاسلامية بصورة اجمالية، والقرآن قد أطر كل شيء تحدّث عنه بـ اطار العقيدة.

أما اذا انتقلنا الى المرحلة الثانية، فسنجد أنّ البسملة نفسها شكلت روح العقيدة واساسها، اذ ركزت على انطلاق كل شيء في الوجود من اسم الله تعالى في مقطعها الأول، وعن الاطار الذي تم بموجبه ذلك الانطلاق بمقطعها الأخير.

فالانطلاق: «بسم الله» وموجبه: (الرحمة التي لا حد لها).

وهذه حقيقة نجدها متمشية في مختلف المواضع من القرآن الكريم، معبرة عن مظهر من مظاهر الكمال في الذات الالهية، مما خلق اعتقاداً راسخاً عند المسلم: أنّه من مصدر الرحمة، ومنته الى عالم الرحمة، وسائر في كنف هذه الرحمة، التي تتجاوز عن الكثير من موارد الانحراف التي تطرأ أحياناً على سلوكه.. وسنجد عند استعراضنا لاثار الدعاء: الكثير من الأساليب التربوية العقائدية، التي تركز على هذا الجانب، في الأدعية المنقولة.

وفي القرآن الكريم نجد الكثير من الآيات الكريمة التي تقرن صفة العزة الالهية بالرحمة، وتنتهي بعبارة: ﴿انّه هُوَ العزيزُ الرَّحيمُ﴾[٢٩].

أو بعبارة: أنه «خير الراحمين»، أو «كتب على نفسه الرحمة» أو ﴿وربُّكَ الغنيُّ ذُو الرحمة﴾[٣٠]. وهكذا الآيات الشريفة:

﴿فقد جاءكُم بيِّنةٌ من ربِّكم وهُدىً ورحمةٌ﴾[٣١].

﴿انَّ رحمتَ الله قريبٌ من المُحسنينَ﴾[٣٢].

﴿فانظُر الى آثارِ رحمتِ الله كيف يُحيي الأرض بعدَ موتها﴾[٣٣].

﴿قُل يا عبادي الَّذينَ أسرفوا على أنفسهم لا تقنطُوا من رحمةِ الله﴾[٣٤].

﴿الرَّحمنُ على العرشِ استوى﴾[٣٥].

وحتى في أشدالمواقف هيبة ورهبة تأتي صفة (الرحمن):

﴿وَخشعت الأصواتُ للرَّحمن فلا تسمعُ إلّا همساً﴾[٣٦].

وهكذا يعتقد المسلم بعنصرين آخرين بالاضافة الى عنصري الحق والعدل ـ اللذين يعنيان التوازن أول ما يعنيان ـ وهما: الحب والرحمة، اللذان يعنيان: الفضل من الخير والاعطاء فوق الاستحقاق.

وبهذا نكون قد عرفنا القوانين الأساسية المتحكمة في الكون، وهي قوانين: (الحق

والعدل والحب والرحمة).

وقد قدم الاسلام رسوله الكريم أروع مثال لهذه الحقائق وكانت سنته وسيرته تعمقها في النفوس.

الرسول الكريم اعظم مظهر لهذه المعاني:

ان المتتبع لسيرته وسنته (ﷺ) يجده بوضوح أروع لهذه الحقائق، والعدال، والحب، والرحمة ليكون بحق المتمم لمكارم الاخلاق، والرحمة المهداة للبشرية.

وهذا ما سنستعرضه باختصار في العناوين والروايات الآتية. ولكن قبل الدخول في هذا الاستعراض نرى من الجميل أن نذكر بعض المقاطع من (نهج البلاغة) يصف فيها الامام علي (عليه السلام) أستاذه ومعلمه ونبيه ومحبوبه رسول الله (ﷺ) باروع الأوصاف فيقول:

«بعث الله سبحانه محمداً رسول الله (ﷺ) لانجاز عدته، واتمام نبوته، مأخوذا على النبيين ميثاقه، مشهورة سماته، كريما ميلاده»[٣٧] ويقول عنه: «قائماً بامرك، مستفزا في مرضاتك، غير ناكل عن قدم، ولاواه في عزم، واعيا لوحيك، حافظا لعهدك، ماضيا على نفاذ امرك، حتى اورى قبس القابس، واضاء الطريق للخابط، وهديت به القلوب بعد خوضات الفتن والآثام»[٣٨].

ويصف سيرته فيقول: «سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل»[٣٩]

ويقول عنه: «فبالغ (ﷺ) في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا الى الحكمة، والموعظة الحسنة»[٤٠]

وكذلك يقول: «حتى بعث الله محمدا (ﷺ) شهيدا، وبشيرا ونذيرا، خير البرية طفلا، وأنجبها كهلا، واطهر المطهرين شيمة، وأجود المستمطرين ديمة»[٤١]

وفي موضع آخر يقول عنه: «التصديق منهاجه، والصالحات مناره، والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامة حلبته، والجنة سبقته... فهو لعيشك نعمة للعالمين، ورسولك بالحق رحمة»[٤٢]

وكذلك يقول: «طبيب دوار بطبه، قد احكم مراهمه، واحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة اليه، من قلوب عمي، وآذان صم، وألسنة بكم»[٤٣]

«عبده ورسوله، ونجيبه وصفوته، لا يؤازى فضله، ولا يجبر فقده، اضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة، والجهالة الغالبة»[٤٤]

«ولقد كان ـ ﷺ ـ يأكل على الارض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري ويردف خلفه»[٤٥]

«امين وحيه، وخاتم رسله، وبشير رحمته، ونذير نقمته»[٤٦]

ولا أجد أروع من هذه الاوصاف، كما لا استطيع ان أفضل في مواقفه (ﷺ) بين موقف وموقف، وما علي لا أن أذكر بعض الروايات معلقاً عليها لا غير وفق العناوين التالية: معتبراً اياها ظواهر عامة في حياته (ﷺ).

اولاً: الرحمة سنة عامة ومع الجميع

١ ـ عنه (ﷺ) «لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: ان رحمتي تغلب غضبي»[٤٧] وهو مفهوم شائع في الادعية المروية عن اهل البيت (عليهم السلام).

٢ ـ وعنه (ﷺ) «ان لله خلق يوم خلق السماوات والارض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السماء والارض، فجعل منها في الارض رحمة فيها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض، فاذا كان يوم القيامة اكملها بهذه الرحمة»[٤٨] فهي سنة تكوينية، والتشريع يتوازن مع التكوين.

٣ ـ عن ابن مسعود «كأني انظر الى رسول الله (ﷺ) يحكي نبياً من الانبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون).[٤٩] انها رحمة حتى بالكافرين المعتدين.

٤ ـ روى جابر بن سمرة قال: «صليت مع رسول الله (ﷺ) صلاة الاولى ثم خرج الى أهله وخرجت معه، فاستقبله ولدان، فجعل يمسح خدّي احدهم واحداً واحداً. قال: واما أنا فمسح خدي. قال فوجدت ليده برداً أو ريحاً كانما اخرجها من جؤنة عطار»[٥٠].

٥ ـ قال (ﷺ) «ترى المؤمنين في تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»[٥١] وهكذا تسود اروع وامتن علاقات الرحمة والحسب بين المؤمنين.

٦ ـ وقال (ﷺ) «اذا صلى احدكم للناس فليخفف، فان منهم الضعيف والسقيم والكبير، واذا صلى احدكم لنفسه فليطول ما شاء»[٥٢].

٧ ـ وروى مالك بن الحويرث قال: أتينا النبي (ﷺ) ونحن شبيبة متقاربون فاقمنا عنده عشرين ليلة فظن أنا اشتقنا اهلنا، وسالنا عمن تركنا في أهلنا فأخبرناه، وكان رقيقاً رحيماً، فقال: «ارجعوا الى اهليكم فعلموهم ومروهم، وصلوا كما رأيتموني اصلي، واذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم احدكم، ثم ليؤمكم اكبركم»[٥٣].

٨ ـ «قدم على النبي سبي، فاذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، فاذا وجدت صبياً في السبي اخذته فالصقته ببطنها وارضعته. فقال النبي (ﷺ) أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ فقال الصحابة (رض): لا وهي تقدر الّا تطرحه فقال: الله ارحم بعباده من هذه بولدها»[٥٤].

٩ ـ بعدما جرى في أحد نادته الملائكة ان شاء تطبق على اعدائه الأخشبين فقال (ﷺ): «بل ارجو أن يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[٥٥].

١٠ ـ قال رسول الله (ﷺ) «بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش، اذ رأته بغي من بغايا بني اسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به»[٥٦].

١١ ـ وروى اسامة بن زيد (رض) قال: كان رسول الله يأخذني فيقعدني على فخذه ويقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر ثم يضمهما ثم يقول: «اللهم ارحمهما فاني ارحمهما»[٥٧].

١٢ ـ وصلى (ﷺ) على جنازة فقال: «اللهم اغفر له وارحمه»[٥٨].

١٣ ـ وكان يقول: «انا محمد، واحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»[٥٩].

١٤ ـ وكان يقول: «رحم الله رجلاً سمحاً اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى»[٦٠].

١٥ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[٦١].

١٦ ـ وقيل يا رسول الله ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة»[٦٢].

وهكذا تأتي رحمة الله الاسلام لتشمل: الخلق كلهم، بل الكون كله (وهو المفهوم من عبارة البسملة في القرآن بعد حديثها عن انطلاقة كل شيء باسم الله، ووصفه تعالى بالرحمن الرحيم، وتشمل حتى الكافرين المعتدين وتسرى في كل العلاقات الاجتماعية الاسلامية بين المؤمنين، وتتركز على الولدان والشباب وتصل الى الحيوان فهي اذن تشمل كل شيء والمسلم الواعي هو الانسان الرحيم بكل شيء.

ثانياً: البر والاحسان والايثار مظاهر للرحمة:

وهي أمور تتسع اتساع الرحمة نفسها من خلال سنة الرسول الاكرم وسيرته: فلنلاحظ هذه الباقة من الاحاديث:

١ ـ قال (صلى الله عليه وآله): «في كل ذات كبد رطبة أجر» وقد استند الامام زين العابدين لهذا الحديث فجوز اطعام الحرورية من الهدي رغم أنهم كانوا من الدّ أعداء اهل البيت(عليهم السلام)[٦٣].

٢ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): «كل معروف صدقة»[٦٤].

٣ ـ وعن أبي ذر (رض): قال لي النبي (صلى الله عليه وآله): «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»[٦٥].

٤ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٦٦].

٥ ـ قال (صلى الله عليه وآله): «المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن: يكف عليه ضيعته، ويحوطه من ورائه»[٦٧].

٦ ـ وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) «ان الأشعريين اذا أرملوا في الغزو، أوقل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية فهم مني وأنا منهم»[٦٨].

٧ ـ وقال (صلى الله عليه وآله) «طعام الاثنين كافي الثلاثة وطعام الثلاثة كافي الاربعة»[٦٩].

٨ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): «اربعون خصلة اعلاهن منيحة العن ـ ز. ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلّا أدخله الله بها الجنة»[٧٠].

٩ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): «الساعي على الارملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»[٧١].

١٠ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): «اخوانكم خولكم»[٧٢].

١١ ـ وقال (صلى الله عليه وآله): «من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر او يضع عنه»[٧٣].

وبهذا يتحول المسلم المتبع لرسول الله (صلى الله عليه وآله) الى وجود بشري محسن. يحسن لكل ذات كبد رطبة انساناً كان أم حيواناً، ويصنع المعروف أي معروف حتى ولو كان قليلاً، يعيش هم أخيه ويشعر بآلامه وآماله، وينظر اليه مرآة له، ويقاسمه لقمة عيشه (كالأشعريين) ويمنح عطائه للآخرين، ويسعى على الأرملة والمسكين ويتعهد عبده فهو أخوه أيضاً. وهكذا كان رسول الله نفسه بل كان في قمة هذه الصفات.

ثالثاً: التكريم، والعفو، والكلام الطيب والمداراة وحسن الظن بعض خلقه (صلى الله عليه وآله)

وكلها أيضاً مظاهر للعاطفة والرحمة النبوية المهداة. فلنلاحظ هذه النصوص الشريفة:

١ ـ روى الامام الصادق (عليه السلام) عن جابر بن عبد الله (رض) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله) خطب الناس بعرفة فقال: «ان دماءكم واموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا»[٧٤].

٢ ـ وفي رواية اخرى في نفس المورد قال (صلى الله عليه وآله): «اتقوا الله في النساء فانكم اخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله»[٧٥].

٣ ـ وقال (ﷺ): «استوصوا بالنساء خيراً»[٧٦].

٤ ـ وقال (ﷺ): «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وان ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»[٧٧].

٥ ـ وكان (ﷺ) يوصي المقاتلين قائلاً: «اغزوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً»[٧٨].

٦ ـ وقال (ﷺ) لأبي هريرة «افش السلام، واطب الكلام وصل الارحام وقم بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام»[٧٩].

٧ ـ وقال (ﷺ): «الكلمة اللينة صدقة»[٨٠].

٨ ـ وقال (ﷺ): «ان نكشر في وجوه اقوام وقلوبنا تلعنهم»[٨١].

٩ ـ وقال (ﷺ): «مداراة الناس صدقة»[٨٢].

وهكذ أيضاً نجده (ﷺ) يدعو لتكريم الإنسان أياً كان، وينشر السلام والاحترام بين المؤمنين، ويوصي بالنساء خيراً، ويأمر باحترام حقوق المعاهدين، والتأدب بالآداب الانسانية للحروب وأن تعم المجتمع الاسلامي الخصال الحسنى: السلام الشامل والكلام الطيب، وصلة الأرحام والصلاة الخاشعة في الليل، والكلمة اللينة وأخيراً المداراة حتى مع من يكرهون. وما أحوجنا اليوم لمثل هذه الخصال.

رابعاً: الرسول الكريم يواجه بالعاطفة الانسانية مواقف صعبة

والمستعرض لسيرة رسول الله (ﷺ) يجدها ملأى بالعطف والحنان والمشاركة للاصحاب في كل الاعمال، الأمر الذي يثير الحماس فيهم وينسيهم مصاعب المسير ويدفعهم للتفاني فقد اخبر الخليفة الراشد عثمان عن ذلك بقوله: «انا والله قد صحبنا رسول الله (ﷺ) في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالقليل والكثير»[٨٣].

وفي الرواية عن الصادق «ان المساكين كانوا يبيتون في المسجد على عهد رسول الله (ﷺ)، فافطر النبي (ﷺ) مع المساكين الذين في المسجد ذات ليلة عند المنبر

في برمه فأكل منها ثلاثون رجلاً ثم ردت الى ازواجه شبعهن»[٨٤].

وكان (ﷺ) يعمل مع أصحابه في الخندق عملاً شاقاً وربما صاحب ذلك الجوع الشديد.

فقد ورد عن الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين علي: كنا مع النبي (ﷺ) في حفر الخندق اذ جاءت فاطمة ومعها كسرة من خبز فدفعتها الى النبي (ﷺ) فقال (ﷺ) ما هذه الكسيرة؟ قالت خبزته قرصاً للحسن والحسين جئتك منه بهذه الكسيرة، فقال النبي (ﷺ): يا فاطمة أما إنه اول طعام دخل جوف ابيك منذ ثلاث»[٨٥]. ومن أروع ما في سيرته (ﷺ) أنه كان يواجه المواقف الكبيرة مواجهة عقائدية وعاصفية كانت تلهب الحماس في النفوس وتدفعها نحو التضحيات والجسام.

يقول الامام علي كما يذكر نهج البلاغة «ولقد كنا مع رسول الله (ﷺ): نقتل آباءنا وابناءنا واخواننا واعمامنا ما يزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو.

... فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر»[٨٦].

وسنركز على موقفين من هذه المواقف باعتبارهما نموذجين رائعين وكل مواقفه (ﷺ) رائعة.

الموقف الأول: حمراء الاسد

حدثنا التاريخ أن قريشاً بعد ان أوقعت القتل والهزيمة بجيش المسلمين في معركة أحد رحلت منتشية بنصرها فلما بلغت محلاً يقال له (الروحاء)، أدركت انها لم تستطع أن تستغل النصر استغلالاً كاملاً، ولعل ذلك كان بإيحاء من بعض الشياطين، فأعدت العدة للعودة الى المدينة واستئصال المسلمين فيها، كما صرح بذلك قائدها ابو سفيان، ووصلت هذه الأنباء الى الرسول (ﷺ) فبدأ بتعبئة المسلمين وحثهم على القتال، مثيراً فيهم أقوى العواطف الرسالية، وانطلق هو معهم، فخرجوا على ما بهم من الجراح وعلى ما أصابهم من القرح، ولكنهم كانوا كالأسود المجروحة، وهو مجروح معهم، وتحركوا حتى

وصلوا الى منطقة تدعى حمراء الأسد مستعدين للتفاني في سبيل العقيدة. وعلم ابو سفيان بالخبر، وادرك ان هذه المجموعة المتفانية لا يمكن أن تقهر حينما لقي معبداً الخزاعي فسأله ما وراءك يا معبد؟ قال: «قد والله تركت محمداً وأصحابه وهم يحرقون عليكم» وجاء في سيرة ابن هشام: «قال: محمد واصحابه يطلبكم في جمع يتحرقون عليكم تحرقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط»[٨٧].

وبهذ دخل الرعب في قلب أبي سفيان فأرسل مع ركب عبد القيس رسالة الى النبي (ﷺ) يخبره فيها أنه عاد عن قراره فقال (ﷺ) «والذي نفسي بيده، لقد سُومت لهم حجارة، لو صبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب». ثم ردد (ﷺ) الآية «حسبنا الله ونعم الوكيل» وكان بذلك يتفاعل مع تعليمات القرآن التي جاءت في سورة الانعام والتي جاء فيها عشرات الآيات التي تلقي دروساً على المسلمين بعد معركة أحد لتعيد لهم العزيمة، وتعبئ الطاقات، وتعمق المفاهيم، وكان من تلك الدروس قوله تعالى: ﴿الذينَ قالَ لهُمُ النّاسُ إنَّ النّاسَ قد جمعُوا لكُم فاخشوهُم فزادَهُم إيماناً وقالوا حسبُنا الله ونِعم الوكيل، فانقلبُوا بِنعمة مِّن الله وفضلٍ لم يمسسهم سوءٌ واتبعُوا رِضوان الله والله ذو فضلٍ عظيم﴾[٨٨].

حيث ربت المسلمين على أن يحولوا التهديدات الى فرص مستعينين بالله متوكلين عليه وهو نعم الوكيل.

والتاريخ هنا يحدثنا عن بطولات الصحابة (رض) باروع الصور ومنها هذه الصورة: «كان ضمرة بن سعيد يحدث عن جدته التي كانت تسقي الماء في أحد، قالت سمعت النبي (ﷺ) يقول: لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان! وكان يراها تقاتل يومئذ أشد القتال، وانها لحاجزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً» فلما حضرتها الوفاة كنت فيمن غسلها فعددت جراحها جرحاً جرحاً فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً، وكانت تقول: اني لأنظر الى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ـ وكان اعظم جراحها.

لقد داوته سنة ـ ثم نادى منادى النبي (ﷺ): الى حمراء الأسد فشدت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم»[٨٩].

لقد كان الحماس النبوي عظيماً حتى جاء في الخبر انه كان يقول:

«والذي نفسي بيده، لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدي»[٩٠].

ومن اروع ما ينقل انه (ﷺ) امر مناديه ان يقول: «إن رسول الله يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج معنا إلّا من شهد القتال بالامس» ليقول سعد بن خضير (رض) وبه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها: سمعاً وطاعة لله ولرسوله! فاخذ سلاحه ولم يعرّج على دواء جراحه».

وهذان مسلمان جريحان يصلهما النداء فيقول أحدهما لصاحبه «والله ان تركنا غزوة مع رسول لغبن» وخرجا يزحفان يضعف احدهما فيحمله الآخر على ظهره عقبةً «أي بالتناوب»[٩١].

الموقف الثاني:

بعد معركة هوازن

ونقف هنا لنتأمل علاجه لحالة الضعف التي بدت لدى بعض المسلمين تجاه خطوة قام بها النبي (ﷺ) في اموال هوازن، حيث أعطى الغنائم الكثيرة لأهل مكة الذين اشتركوا معه في مطلع حياتهم الرسالية، فقاتلوا الكافرين بعد ان كانوا هم الطليعة الكافرة، وكان هذا الاعطاء ذا دوافع اجتماعية سياسية عالية تحاول تأليف القلوب وإشعارها بفارق كبير بين حياة الاستغلال الجاهلية وحياة العزة الاسلامية، وغير ذلك. وهنا اشاع المنافقون بين الأنصار بانه (ﷺ) لقي قومه فمال اليهم، الأمر الذي ولد حالة ضعف في نفوس بعض المسلمين الأنصار. وسرت هذه الاشاعة لتؤدي الى شبه موجة تساؤل وغضب. وهي حالة خطيرة في مجتمع يبنيه رسول الله (ﷺ) ليحمل الرسالة الكبرى الى العالم بعقيدة راسخة. وهنا جمعهم رسول الله (ﷺ) ودار بينه وبينهم الحوار التالي:

قال (ﷺ): يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم؟

ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟ فقال الانصار: بلى! الله ورسوله أمنّ وافضل. فقال (ﷺ): ألا تجيبوني يا معشر الانصار؟ فردّ الأنصار: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل.

فقال (ﷺ): أما والله لو شئتم لقلتم ولصدقتم، ولصُدّقتم اتيتنا مكذّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك...

وأضاف (ﷺ) بعد هذا قوله: «أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله الى رحالكم، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، سلكت شعب الأنصار، اللهم إرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء ابناء الأنصار «وهنا يتأثر الأنصار أشد التأثر وتنفجر العواطف ليعلنوا أنهم رضوا برسول الله (ﷺ) قسماً وحظاً[٩٢]».

وهنا يلاحظ أن الحالة كانت خطيرة لأنها لا تنسجم مع الخلفيات العقائدية التي كانوا يؤمنون بها وكذلك لا تنسجم مع المسبقات التجريبية التي اكتسبوها خلال حياتهم الطويلة نسبياً معه (ﷺ)، ورؤيتهم له كأعدل وأوعى ما يكون الانسان الرسالي الواسع الرؤية والقلب.

وهذه الحالة تحتاج الى علاجين: أحدهما؛ على المدى الطويل، وهو تركيز العقيدة، ورفع كل شوائب ضعف النفس الانسانية، والثاني؛ على المدى الفعلي الذي ينقذ الموقف الحاد، وهو العلاج العاطفي الواعي انه يقول لهم: «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم» كلّ هذا بعد ان يسبق هذا الكلام العاطفي مدح للأنصار، وموقفهم من الرسالة، ويعقبه مدح وثناء لمواقفهم الرسالية، مما يفجر عواطفهم، فينطلقون باكين ليعلنوا أنهم رضوا برسول الله قسماً وحظاً.

ويطول المقام لو اردنا استعراض النماذج الاخرى فلنكتف بما قدمناه. نسأل الله جل وعلا ان يوفقنا للاقتداء برسول الله وتطبيق الاسلام الحنيف، انه السميع المجيب.

الهوامش:

١ ـ بحار الانوار للمجلسي ج ١ ص ٩٨.
٢ ـ الفرقان: ٤٣.
٣ ـ المفردات للراغب الأصفهاني، ص ١٢٥.
٤ ـ المصدر السابق.
٥ ـ البقرة / ١٧٦.
٦ ـ الأنعام / ٧٣.
٧ ـ الأعراف / ٨
٨ ـ التوبة / ٣٣.
٩ ـ يونس / ٣٥.
١٠ ـ العصر / ٣.
١١ ـ الشورى / ١٥.
١٢ ـ النحل / ٩٠.
١٣ ـ الأنعام / ١١٥.
١٤ ـ هود / ١٠١.
١٥ ـ البقرة / ١٢٤.
١٦ ـ النمل / ٥٢.
١٧ ـ النساء / ٤٠.
١٨ ـ الكهف / ٤٩.
١٩ ـ الأنبياء / ٤٧.
٢٠ ـ غافر / ١٧.
٢١ ـ آل عمران / ١٨.
٢٢ ـ النساء / ١٣٥.
٢٣ ـ الحشر / ٩.
٢٤ ـ راجع سفينة البحار، ص ٦٦٨.
٢٥ ـ ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٢٢ (الوطن، حب الوطن)..
٢٦ ـ الشورى / ٢٣.
٢٧ ـ الروم / ٢١.
٢٨ ـ المجادلة / ٢٢.
٢٩ ـ الدخان / ٤٢.

٣٠ـ الأنعام/ ١٣٣.
٣١ـ الأنعام/ ١٥٧.
٣٢ـ الاعراف/ ٥٦.
٣٣ـ الروم/ ٥٠.
٣٤ـ الزمر/ ٥٣.
٣٥ـ طه/ ٥.
٣٦ـ طه/ ١٠٨.
٣٧ـ نهج البلاغة: توضيح صبحي الصالح ص ٤٤.
٣٨ـ نهج البلاغة: توضيح صبحي الصالح ص ١٠١.
٣٩ـ نهج البلاغة: توضيح صبحي الصالح ص ١٣٩.
٤٠ـ نهج البلاغة: توضيح صبحي الصالح ص ١٤٠.
٤١ـ نهج البلاغة: توضيح صبحي الصالح ص ١٥١.
٤٢ـ نهج البلاغة: توضيح صبحي الصالح ص ١٥٣ و ١٥٤.
٤٣ـ نهج البلاغة: ص ١٥٦.
٤٤ـ نهج البلاغة: ص ٢١٠.
٤٥ـ نهج البلاغة: ص ٢٢٩.
٤٦ـ نهج البلاغة: ص ٢٤٧.
٤٧ـ رواه البخاري الفتح ١٣ ومسلم.
٤٨ـ رواه مسلم.
٤٩ـ رواه البخاري، (الفتح ٦) ومسلم.
٥٠ـ رواه مسلم.
٥١ـ رواه البخاري (الفتح ١٠) ومسلم.
٥٢ـ رواه البخاري (الفتح ٢) ومسلم.
٥٣ـ رواه مسلم.
٥٤ـ البخاري الفتح ١٠ ومسلم.
٥٥ـ رواه مسلم.
٥٦ـ رواه البخاري الفتح ٦ ومسلم.
٥٧ـ رواه البخاري الفتح ١٠.
٥٨ـ رواه مسلم.
٥٩ـ رواه مسلم.
٦٠ـ رواه البخاري الفتح ٤.
٦١ـ رواه البخاري الفتح ١٣.

٦٢ـ رواه مسلم.
٦٣ـ رواه البخاري الفتح ١٠ ومسلم. وراجع موجز احكام الحج للسيد الصدر ص ١٦٠.
٦٤ـ رواه البخاري الفتح ١٠ ومسلم.
٦٥ـ رواه مسلم.
٦٦ـ البخاري الفتح ٥ ورواه مسلم.
٦٧ـ رواه أبو داود.
٦٨ـ البخاري الفتح ٥ ومسلم.
٦٩ـ البخاري، الفتح ٩.
٧٠ـ البخاري، الفتح ١٢.
٧١ـ رواه البخاري الفتح ١٠ ومسلم.
٧٢ـ البخاري الفتح ١ ومسلم.
٧٣ـ رواه مسلم.
٧٤ـ رواه مسلم.
٧٥ـ رواه مسلم.
٧٦ـ رواه البخاري الفتح ٩ ومسلم.
٧٧ـ البخاري الفتح ٦.
٧٨ـ رواه مسلم.
٧٩ـ رواه احمد (٢ / ٤٩٣).
٨٠ـ رواه احمد (٢ / ٢١٣).
٨١ـ رواه البخاري.
٨٢ـ رواه ابن حبان ٢ / ٢١٦.
٨٣ـ رواه احمد ١ / ٧٠.
٨٤ـ بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٢١٩.
٨٥ـ بحار الانوار، ج ١٦، ص ٢٢٥.
٨٦ـ نهج البلاغة، ص ٩٢.
٨٧ـ سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٠٨، وبحار الانوار، ج ٢٠، ص ٩٩.
٨٨ـ آل عمران ١٧٣، ١٧٤.
٨٩ـ كتاب المغازي للواقدي، ج ١، ص ٢٧٠.
٩٠ـ كتاب المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٣٢٧.
٩١ـ كتاب المغازي للواقدي، ج ٢، ص ٣٣٥.
٩٢ـ سيرة ابن هشام ـ دار احياء التراث العربي، م ٤ ص ١٤٢.